

## لماذا الأعياد؟

بدأت السنة الكنسية، منذ السنوات الأولى للمسيحية، في الأول من أيلول بالاحتفال بأعياد رئيسية. أيلول في التقويم الشرقي هو بداية الخريف، لذلك علينا أن نتأمل بمعاني التعميد الكنسي، و ما تعنيه عبارة " السنة الكنسية " .

يعرف أكثرنا كم من الوقت و الورق و الحبر و ... قد صرف محاربو الدين للقضاء على أيام الأعياد الدينية، مستعملين الوسائل اللا دينية و الإضطهادات و البرامج التدريسية لبرهان عقم الدين و ضرره. لكن الأعياد لا تزال حيّة و في كل يوم يتّضح للبشرية و خاصة للمؤمنين عظم أهميتها في حياتهم.

بالرغم من كل ما ألصق بالمسيحية على أيدي الشيوعية و اللباريلية الملحدة من اتهامات كاذبة، فإن الإنجيل و قصة ولادة يسوع المسيح، التي جهد قسم من العالم لتحويله من " حدث إلهي " إلى " شجرة السنة الجديدة " فإنه عندما نُضيء أضواءها التي نضع النجمة في قمته في ليلة مظلمة و باردة نتذكر و نعيّد للنجم الذي ظهر منذ ألفي سنة فوق مغارة بيت لحم. يمكن للمراقب أن يرى الشموع، النجم، الشجرة كلها تلمع في أعين الأولاد و لم يتمكن إنسان من تحويلهم إلى رموز إحادية أو مادية. لهذه الأسباب لجأ محاربو المسيحية إلى وسائل أكثر فظاعة و قساوة كما كان يحدث ليلة الفصح عندما كانوا يجيئون فرقا كبيرة من " شباب الشيوعية " ضد المؤمنين. ففي تلك الليلة التي تُعتبر " عيد الأعياد " و " اليوم المقدس للأيام المقدسة "، كان الشباب الشيوعي يكسرون الأبواب و يصرخون بأعلى أصواتهم ليخنقوا أصوات المصلّين المردّدة : " كل شيء قد امتلأ بالنور، السماء و الأرض و ما تحت الأرض. فليعيّد العالم كله، المنظور منه و غير المنظور لقيامة المسيح، الذي به خلصنا". لقد صرخ محاربو المسيحية و زالت أصواتهم و تعاليمهم، لكن نور و فرح الفصح لا يزال هو هو و منذ ألفي سنة.

لماذا نتأمل و نفكر و نتساءل عن نتائج تقديس السنة الكنسية لملايين الأشخاص و إعطائها معنى لحياتهم؟ لماذا لا نجرب أن نفهم تركيبة الأعياد التي تعطي لكل فصل لونه الفريد و عمقه الفريد؟ هل نور الميلاد، لمعان حزن الصوم الذي يتحول إلى فرح الفصح، عيد الصعود الذي يقع في الصيف و عيد الخمسين و أعياد الصيف الأخرى مثل التجلي و الرقاد، هل كل هذه الأعياد مجرد تخيلات؟ هوس؟ خرافات؟ و لنفرض لبرهنة بأنها كذلك، فلماذا لا نعطيها بعض الوقت لنفهم تأثيرها الحياتي على البشرية؟ هناك حقيقة واضحة و هي أن البشرية لا يمكن أن تحيا بدون أعياد و تعيّد و بدون احتفالات. لقد برهن علم الاجتماع و منذ زمن بعيد، علمياً، و موضوعياً بأن الأعياد هي في جوهر و أعماق حياة و ثقافة الإنسان منذ آلاف السنين .

لا نجد مجتمعاً و لا حضارة بدون أعياد. كما نرى أن محاربي الديانة أنفسهم، خاصة الإلحاد يحتفل بأعياده و يُفرّخ أعياداً: يوم العمل، يوم المرأة و غيرها. كما حافظ على طقوس التعميد، الإحتفالات، المظاهرات، الأزهار، الأغاني، الموسيقى، عطلة، مآدب الخ... دعوني أردّد، لا تغضوا النظر أو تسقطوا الأعياد من برامجكم و حياتكم لكونها إنتاج و فريقة دينية و وهم. بل اعتبروا الظاهرة نفسها، جوهر حقيقة التعميد و الإحتفالات في حياة البشرية. ثم تأملوا بمعانيهم بالنسبة للإنسان. نعيّد لأحداث مختلفة، و لا يهم ما الذي يحرك شعور الإنسان في حالة خاصة، إن ما يهم و يبقى ضروري هو الحاجة للتعميد. من أين يأتي هذا الشعور؟ و ماذا يقول عن الطبيعة البشرية؟ هذه السؤالات هي التي يجب أن نجد الجواب عليها. لقد سبق فقلت بأنه لا يوجد مجتمع بشري، حتى العصر البدائي، لم يكن لديه أعياداً و تعييداً.

ماذا نعرف عن تلك الأعياد البدائية؟ ملاحظتان أساسيتان :  
أولاً : ما هو واضح، أن التعييد هو قسمٌ من دورة الإنسان العملية و الراحة. ليعيش، على الشخص أن يعمل. لكنه لا يستطيع أن يعمل بدون راحة. ، ينتج عن ذلك في كل مكان و حضارة دورة عمل و راحة، بالإضافة إلى ذلك، تعتبر الراحة، المناسبة لعدم العمل، و عيشت كخبرة مفرحة. هذا هو السبب و الجوهر الأول للتعبيد. لكن خلال تطور العيد و التعبيد ظهر سبب آخر مهم: حاجة الإنسان لمعنى. بالعمل يعطي الإنسان معنى للعمل نفسه، ثم للحياة كلها. هنا، نجد أن حاجة الإنسان الأساسية ليس للراحة فحسب، و لكن للفرح، للمعنى، يجد الأساس و المعنى الحقيقي للتعبيد و ضرورته للمجتمع البشري. فالحيوانات و الإنسان، يعيشون تحت نظام العمل و الراحة، لكن حاجة الحيوانات للراحة تبقى مجرد راحة جسدية، و لا تتحول إلى فرح التعبيد بالعيد.

بناء لمنطق الإلحاد، المستند على نظرية المادية العالمية، دعونا نوافق بأن الملحدين على حق في شجبهم للأعياد الدينية، لكنهم على خطأ عندما يحلون محلها أعياداً علمانية. بناء على الفلسفة العلمانية الملحدة و المادية ينبغي أن لا يكون هناك أي عيد و لا تعبيد، هناك الحيوانات و الدورة الجسدية للعمل و الراحة. و الراحة هي مجرد إعطاء فرصة للجسد ليعود و يسترجع قواه لليوم الذي بعد. و عليه، كل يوم يحتاج إلى ساعات محدّدة للنوم، كل أسبوع يتطلّب كذا أيام راحة، كل سنة تحتاج إلى كذا أسابيع فرصة. أما الهدف لكل هذه هو المنفعة و الحفاظ على قوة الجسد و إمكانية العطاء.

لكن الإنسان البدائي لم يرتاح فحسب، و لكنه احتقل. التعب و الجهد لم يكونا مجرد بديل للنوم و الراحة، لكنهم نمو ليرى فيهم الإنسان ثمر عمله و لإعطاء معنى له، و ليفرح به. ففي التعبيد و الإحتفال لم يعد العمل روتينياً محزناً، صراعاً للبقاء، سلسلة أيام و ليال. على العكس من ذلك، أعطي العمل معنى، و أصبح من الممكن التأمل بنتائجه، و أصبح موحى و إنسانياً. فبالرغم من الأغاني و التعظيم الإشتراكي للعمل، عرف الإنسان العادي بأن العمل بقي عملاً، تعب و جهد. يقبل الإنسان كل هذه الأمور ثم يعود ليطورها بعد أن يكون عمله قد تتوّج بالنجاح المادي، و يصبح محرّكاً للحرية و الفرحة و لحياة مليئة. هذا هو المعنى الحقيقي للعيد في مراحل البدائية: إنسان حرّ نفسه من حياة خضعت للضرورات و تعمل بقوانين ظالمة. لهذا السبب لا يرتاح الإنسان فحسب، لكنه يُعيّد. و أصبحت الأعياد و الإحتفالات مخزناً و تعبيراً و مفهوماً لأهداف الحياة و معناها.

أخيراً، بالإحتفالات، أو بالأحرى بواسطة الإنسان المُحتقل، يُقدّر المحتفلون، معنى التعبيد لأي مُحتقل و من أي إيمان و نظرة و مفهوم. " قل لي بماذا تحتقل، و سأقول لك من أنت! "

أميين

المتروبوليت بولس صليبيا